



الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام

الشيخ محمد مهدي الآصفي

مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات
الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

اسم الكتاب: .... الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام

المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى: .... ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

الكمية... ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾
غافر: ٦٠

الدعاء

تعريف الدعاء:

الدعاء أن يطلب العبد حاجاته من الله تعالى. ولدى التحليل يرجع هذا التعريف إلى الأركان الأربعة التالية:

١ ـ المدعو: وهو الله تعالى.

٢ ـ والداعي: وهو العبد.

٣ ـ والدعاء: وهو طلب العبد من الله تعالى.

٤ ـ والمدعو له: وهو الحاجة الّتي يرفعها العبد بالدعاء إلى الله تعالى، وفيما يلي شرح وتوضيح لهذه الأركان الأربعة للدعاء.

١. المدعو:

المدعو في الدعاء هو الله تعالى:

١ ـ الغني المطلق الذي له ملك السماوات والأرض:

﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[1].

---

(١) البقرة : ١٠٧.

﴿**وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾[1].

٢ ـ والذي لا ينفد ملكه وسلطانه بالعطاء والبذل:

﴿**إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ**﴾[2]، ﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾[3].وقد ورد في دعاء الافتتاح: «لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً».

٣ ـ وليس من بخل و شحّ في ساحته، فلا يعجزه شيء، ولا يضيق ملكه بشيء من العطاء، ولا ينقص من ملكه شيء إذا جاد بما يحب على عباده، ولا يبخل على عباده بالإجابة لحاجاتهم. فليس من سبب إذن ألاّ يستجيب لدعاء عباده إذا دعوه فيما أهمهم من صغيرة وكبيرة وذلك قوله تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ إلاّ أن لا تكون الاستجابة لصالح العبد، وهو لا يعرف ما يصلحه عما لا يصلحه والله تعالى يعرف ما يصلح عبده وما لا يصلح له.

---

(١) المائدة : ١٧

(٢) سورة ص: ٥٤.

(٣) الإسراء : ٢٠

وفي دعاء الافتتاح: «ولعلّ الذي أبطأ عنّي هو خيرٌ لي لعلمك بعاقبة الأمور، فلم أرَ مولاً كريماً أصبر على عبد لئيم منك عَلَيَّ».

٢. الداعي:

وهو العبد، الفقير في كل شيء، حتى في وعيه لفقره إلى الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء﴾[2].

ولا يرفع الإنسان إلى الله تعالى شيئاً أفضل من فقره إلى الله، والفقر إلى الله من منازل رحمة الله تعالى. وكلما كان وعي الإنسان لفقره إلى الله تعالى أكثر كان أقرب إلى رحمة الله تعالى؛ وكلما استكبر ولم يستشعر فقره وحاجته إلى الله كان أبعد عن رحمة الله.

(١) فاطر: ١٥.

(٢) محمد: ٣٨.

٣. الدعاء: (الطلب)

وكلما يكون الإنسان أكثر إلحاحاً إلى الله تعالى في الطلب يكون أقرب إلى رحمة الله... وأقصى درجات الطلب عندما يضطرّ الإنسان إلى الله تعالى اضطراراً ليس له من أن يستجيبَ اللهُ تعالى لحاجته بُدّ، ونعني بالاضطرار أن يفقد الإنسان كل الخيارات الأُخرى، ولا يبقى له غير خيار واحد ويكون أمر ذلك الخيار بيد الله تعالى وليس بيده، فيضطرّ إلى الله تعالى اضطراراً... وعند ذلك يكون الإنسان أقرب شيء إلى رحمة الله تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.[1]

وليس بين دعاء المضطرّ وإجابة الله تعالى له بكشف السوء عنه أيُّ فصل. وهذا الاضطرار في الدعاء والطلب هو بمعنى الإنقطاع عن كل شيء غير الله تعالى والانقطاع إلى الله وحده، ومن دون ذلك لا يكون الدعاء والطلب اضطراراً إلى الله.

وليس الدعاء يغني عن السعي والعمل، كما لا يغني السعي والعمل صاحبه عن الدعاء والطلب من الله تعالى.

(١) النمل: ٦٢.

٤. المدعو له:

وهو كلّ ما يدعو له الإنسان ربّه سبحانه وتعالى من حاجاته وطلباته. وليس على الإنسان من بأس أن يطلب من الله تعالى ما يشاء من حاجاته وطلباته، مهما كثر وكبر، فليس ذلك مما يعجز الله تعالى، ولا ينقص من ملكه وسلطانه، وليس من بخل و شحّ في ساحته تعالى. كما ليس على الإنسان بأس أن يطلب من الله ما صغر من حاجاته «حتى شسع نعله وعلف دابّته وملح عجينه» كما ورد في النص؛ فإن الله تعالى يحب أن يكون عبده على صلة دائمة به تعالى في كل صغيرة وكبيرة من حاجاته، لا تحجبه صغار حاجاته عن الله لصغرها، ولا تحجبه كبار حاجاته إلى الله تعالى لكبرها فتكون يده ممدودة لله تعالى في كل حاجة، صغيرة كانت أو كبيرة. ويكون قلبه موصولاً بذكر الله تعالى في كل حال في السرّاء والضرّاء. وليس من شيء يصل بين الإنسان والله تعالى كالدعاء والحاجة.

وهذه الأركان هي الأركان الأربعة للدعاء.

قيمة الدعاء:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

الدعاء إقبال العبد على الله، والإقبال على الله هو روح العبادة، والعبادة هي الغاية من خلق الإنسان. هذه النقاط الثلاث تجسّد لنا قيمة الدعاء وتوضّح لنا حقيقته ولنبدأ بالنقطة الأخيرة، ومنها نتدرّج إلى الثانية ثم الأُولى.

إنّ القرآن الكريم صريح وواضح في أنّ العبادة هي الغاية من خلق الإنسان. يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1] وهذه هي النقطة الأخيرة، وهي ذات أهمية كبيرة في هذا الدين.

وقيمة العبادة أنّها تشدّ الإنسان إلى الله وتربطه به تعالى. ولذلك فإنّ قصد التقرب إلى الله في العبادة أمر جوهري في

(١) الذاريات: ٥٦.

تحقيقها. ومن دونه لا تكون العبادة، عبادة؛ فالعبادة في حقيقتها حركة إلى الله، وإقبال على الله، وقصد لوجه الله، وابتغاء لمرضاته. وهذه الحقيقة الثانية، وهي توضح الحقيقة الأُولى.

والحقيقة الأُولى أنّ الدعاء إقبال على الله، ومن أبرز مصاديق الانشداد والارتباط بالله... ولا يوجد في العبادات عبادة تقرّب الإنسان إلى الله أكثر من الدعاء.

روي عن سيف التمّار أنّه قال: سمعت أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول: «عليكم بالدعاء، فإنّكم لا تتقربون بمثله»[1].

وكلما تكون حاجة الإنسان إلى الله أعظم، وفقره إليه تعالى أشد، واضطراره إليه أكثر يكون إقباله في الدعاء على الله أكثر. والنسبة بين إحساس الإنسان بفقره إلى الله واضطراره إليه تعالى، وبين إقبال الإنسان عليه سبحانه في الدعاء نسبة طردية. فإنّ الحاجة والاضطرار يُلجئان الإنسان إلى الله، وبقدر ما يشعر بهذه الحاجة يكون إقباله على الله، كما أنّ العكس أيضاً كذلك.

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٣.

يقول تعالى:

﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾[1]. إنّ الإنسان ليطغى ويُعرض عن الله بقدر ما يتراءى له أنّه قد استغنى، ويقبل على الله بقدر ما يعي من فقره وحاجته إلى الله. وتعبير القرآن دقيق ﴿**أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾. فلا غنى للإنسان عن الله، بل الإنسان فقر كله إلى الله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّه وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[2] ولكنّه يُتراءى له أنّه قد استغنى، وغرور الإنسان هو الذي يخيّل إليه ذلك. فإذا تراءى له أنّه قد استغنى عن الله، أعرض ونأى بجانبه وطغى. فإذا مسّه الضرّ، وأحسّ بالاضطرار إلى الله، عاد وأقبل عليه.

إذن الدعاء في حقيقته إقبال على الله. ومن يدع الله تعالى، ويتضرع إليه فلابدّ أن يقبل عليه تعالى. وهذا الإقبال هو حقيقة الدعاء وجوهره وقيمته.

(١) العلق: ٦ـ٧.
(٢) فاطر: ١٥.

المناهل الأربعة للورود على الله في القرآن:

والدعاء من أهم المناهل التي جعلها الله تعالى لعباده للورود عليه. وقد بيّن الله تعالى لنا في القرآن أربعة مناهل للورود عليه، ومن جملة المناهل التي ورد ذكرها في القرآن والسنّة:

عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «أربعة للمرء له لا عليه:

(الإيمان) و(الشكر)، فإنّ الله تعالى يقول:

﴿**مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ**﴾[1].

و(الاستغفار) فإنّه تعالى يقول:

﴿**وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[2].

و(الدعاء) فإنّه تعالى يقول:

﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ**﴾»[3].

---

(١) النساء: ١٤٧.

(٢) الأنفال: ٣٣.

(٣) الفرقان: ٧٧؛ بحار الأنوار ٩٣: ٢٩١.

وعن معاوية بن وهب عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «يا معاوية! من أُعطي ثلاثة لم يُحرم ثلاثة: من أُعطي الدعاء أُعطي الإجابة، ومن أُعطي الشكر أُعطي الزيادة، ومن أُعطي التوكل أُعطي الكفاية، فإنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾.[1] ويقول: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾.[2] ويقول: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾»[3].

وعن عبدالله بن وليد الوصافي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «ثلاث لا يضرّ معهنّ شيء: الدعاء عند الكربات؛ والاستغفار عند الذنب؛ والشكر عند النعمة»[4].

وهذه قنوات للارتباط بالله، وقنوات الارتباط بالله كثيرة منها التوبة؛ ومنها الخوف والخشية؛ ومنها الحب والشوق إلى الله؛ ومنها الرجاء؛ ومنها الشكر؛ ومنها الاستغفار. وعلاقة الإنسان بالله

---

(١) الطلاق: ٣.

(٢) إبراهيم: ٧.

(٣) راجع للحديث: الخصال للصدوق ١: ٥٠؛ المحاسن للبرقي: ٣؛ الكافي ٢: ٦٥.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي: ١٢٧.

يجب أن تنتظم طبق مجموعة متناسقة من هذه القنوات؛ ولا يصحح الإسلام نظرية وحدة طريق الارتباط. والدعاء من أهم وسائل الارتباط بالله والإقبال على الله. ذلك لأنّه لا شيء يلجئ الناس إلى الله كما تلجئهم إليه حاجتهم وفقرهم. فالدعاء من أوسع أبواب الإرتباط والعلاقة بالله.

عن الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء الأسحار: «الحمدُ لله الذي أُناديه كلما شئت لحاجتي وأخلو به حيث شئت لسرّي، بغير شفيع فيقضي لي حاجتي».

الدعاء جوهر العبادة

إذن الدعاء جوهر العبادة و روحها؛ فإنّ الغاية من خلق الإنسان العبادة؛ والغاية من العبادة الانشداد إلى الله. والدعاء يحقق هذا الانشداد والارتباط من أوسع الأبواب، وبأقوى الوسائل.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدعاء مخ العبادة؛ ولا يهلك مع الدعاء أحد»[1].

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٣٠٠.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «افزعوا إلى الله في حوائجكم، والجأوا إليه في ملمّاتكم، وتضرعوا إليه، وادعوه؛ فإنّ الدعاء مخ العبادة وما من مؤمن يدعو الله إلاّ استجاب؛ فإمّا أن يعجله له في الدنيا، أو يؤجل له في الآخرة، وإمّا أن يكفِّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا؛ ما لم يدع بمأثم»[1]. وتكاد الرواية ترينا طريقة حركة الإنسان إلى الله في الدعاء وإقباله عليه.تأمّلوا: (افزعوا إلى الله في حوائجكم)، (والجأوا إليه في ملمّاتكم)، (وتضرعوا إليه).

وفي رواية أُخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين»[2]. وإنما كان الدعاء (عماد الدين)؛ لأنَّ قوام الدين هو التحرك إلى الله، والدعاء إقبال على الله. ولما كانت حقيقة الدعاء هي الإقبال على الله كان الدعاء أحب شيء إلى الله وأكرم شيء عنده.

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٣٠٢.

(٢) بحار الأنوار ٩٣: ٢٨٨.

عن رسول الله ﷺ: «ما من شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء»[1].

وعن حنان بن سدير عن أبيه، قال: قلت للباقر عليه السلام: أي العبادة أفضل؟ فقال: «ما من شيء أحبّ إلى الله من أن يُسأل ويُطلب ما عنده؛ وما أحد أبغض إلى الله عزّ وجلّ ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأله ما عنده».[2]

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الدعاء: «الحمد لله الذي مرضاته في الطلب إليه، والتماس ما لديه؛ وسخطه في ترك الإلحاح في المسألة عليه»[3].

وفي دعاء كميل: «فإنّكَ قضيتَ على عبادكَ بعبادتكَ، وأمرتهم بدعائك، وضمنتَ لهم الإجابة، فإليكَ يا ربّ نصبتُ وجهي، وإليكَ يا ربّ مددتُ يَدِي...».

(١) مكارم الأخلاق : ٣١١.

(٢) مكارم الأخلاق : ٣١١ ؛ نفس المضمون في المحاسن للبرقي : ٢٩٢.

(٣) دعاء يوم الأربعاء.

الإعراض عن الدعاء إعراض عن الله

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ والاستكبار عن العبادة في هذه الآية الكريمة هو الإعراض عن الدعاء، فإنّ السياق يدعو إلى الدعاء. يقول تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وبعد ذلك مباشرة يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. إذن الإعراض عن الدعاء في هذه الآية الكريمة بحكم الاستكبار عن العبادة؛ لأنّه إعراض عن الله.

وروي بهذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الكريمة: «هي والله العبادة؛ هي والله العبادة»[1].

وعن حماد بن عيسى عن الصادق عليه السلام: «إنّ الدعاء هو العبادة؛ إنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2]. ولا قيمة للإنسان عند الله إلاّ

(١) وسائل الشيعة ٦: ٤٣٨ ب٦ ح١.

(٢) وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٣.

بالدعاء، وبمقدار الدعاء، ولا يعبأ الله تعالى بعبده إلاّ بقدر ما يدعوه ويقبل عليه ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾(١).

وذلك لأنّ الدعاء في الحقيقة يساوي الإقبال على الله، كما أنّ الإعراض عن الدعاء إعراض عن الله ومن يعرض عن الله فلا يعبأ الله به، ولا قيمة له عند الله.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث: «وما أحد أبغض إلى الله عزّوجلّ ممن يستكبر عن عبادته، ولا يسأل ما عنده»(٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لتسألنّ الله أو ليغضبنّ عليكم، إنّ لله عباداً يعملون فيعطيهم، وآخرين يسألونه صادقين فيعطيهم، ثم يجمعهم في الجنة، فيقول الذين عملوا: ربنا عملنا فأعطيتنا، فبما أعطيت هؤلاء؟ فيقول: هؤلاء عبادي أعطيتكم أجوركم ولم ألتكم من أعمالكم شيئاً، وسألني هؤلاء فأعطيتهم وأغنيتهم، وهو فضلي أُوتيه من أشاء»(٣).

(١) الفرقان : ٧٧.

(٢) وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٤، ح ٨٦٠٤.

(٣) المصدر السابق، ح ٨٦٠٩.

إنّ الله يشتاق إلى دعاء عبده:

إذا أقبل العبد بالدعاء على الله أحبّه الله. وإذا أعرض عن الله كرهه الله. وقد يؤجّل الله تعالى إجابة دعاء عبده المؤمن ليطول وقوفه بين يديه، ويطول إقباله عليه وتضرّعه إليه... فإنّ الله يحب أن يسمع تضرع عبده، ويشتاق إلى دعائه ومناجاته.

روي عن العالم عليه السلام: «إنّ الله عزّوجلّ ليؤخر إجابة المؤمن شوقاً إلى دعائه، ويقول: صوت أُحبّ أن أسمعه. ويعجّل دعاء المنافق، ويقول: صوت أكرهه»(١).

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «أكثروا من أن تدعو الله، فإنّ الله يحبّ من عباده المؤمنين أن يدعوه، وقد وعد عباده المؤمنين الاستجابة»(٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أحب الأعمال إلى الله عزّوجلّ في الأرض: الدعاء»(٣).

(١) بحار الأنوار ٩٧: ٢٩٦.

(٢) وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٦، ح ٨٦١٦.

(٣) وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٩، ح ٨٦٣٩.

وروي أنّ أبا جعفر الباقر عليه‌السلام كان يقول: «إنّ المؤمن ليسأل الله عزّوجلّ حاجة، فيؤخر عنه تعجيل إجابته حباً لصوته واستماع نحيبه»[1].

وعن أبي عبدالله الصادق عليه‌السلام: «إنّ العبد ليدعو فيقول الله عزّوجلّ للملكين: قد استجبت له، ولكن احبسوه بحاجته، فإنّي اُحب أن أسمع صوته، وإنّ العبد ليدعو فيقول الله تبارك وتعالى: عجلوا له حاجته فإني أبغض صوته»[2].

وعن أبي عبدالله الصادق عليه‌السلام: «إنّ العبد الولي لله ليدعو الله عزّوجلّ في الأمر ينوبه، فيقال للملك الموكل به: إقض لعبدي حاجته، ولا تعجلها فإني أشتهي أن أسمع صوته ونداءه، وإنّ العبد العدو لله عزّوجلّ يدعو الله عزّوجلّ في الأمر ينوبه، فيقال للملك الموكل به: اقض حاجته، وعجلها فإني أكره أن أسمع صوته ونداءه»[3].

---

(١) قرب الاسناد: ١٧١؛ اصول الكافي: ٥٢٦.

(٢) وسائل الشيعة ٤: ١١١٢، ح ٨٧٣١؛ اُصول الكافي: ٥٢٦.

(٣) اُصول الكافي: ٥٢٧؛ وسائل الشيعة ٤: ١١١٢، ح ٨٧٣٢.

والله تعالى يكره سؤال الناس بعضهم لبعض، ويحب للمؤمن أن يكرم نفسه ويده عن السؤال، ولكنّه تعالى يحب سؤال المؤمنين منه، ويحب تضرعهم ودعاءهم عنده.

عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «إنّ الله أحب شيئاً لنفسه وأبغضه لخلقه، أبغض لخلقه المسألة، وأحبّ لنفسه أن يُسأل، وليس شيء أحب إلى الله عزّوجلّ من أن يُسأل، فلا يستحي أحدكم من أن يسأل الله من فضله، ولو شسع نعل»[1].

وعن أبي عبدالله الصادق عليه‌السلام: «إنّ الله يحبّ العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم، ويبغض العبد أن يستخفّ بالجرم اليسير»[2].

وعن محمد بن عجلان قال: «أصابتني فاقة شديدة وإضاقة، ولا صديق لمضيق، ولزمني دين ثقيل وعظيم، يلحّ في المطالبة، فتوجهت نحو دار الحسن بن زيد ـ وهو يومئذ أمير المدينة ـ لمعرفة كانت بيني وبينه، وشعر بذلك من حالي محمد بن عبدالله

---

(١) فروع الكافي ١: ١٩٦؛ من لا يحضره الفقيه ١: ٢٣.

(٢) المحاسن للبرقي: ٢٩٣؛ بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٢.

بن علي بن الحسين عليه السلام، وكان بيني وبينه قديم معرفة، فلقيني في الطريق فأخذ بيدي وقال: قد بلغني ما أنت بسبيله، فمن تؤمّل لكشف ما نزل بك؟ قلت: الحسن بن زيد.

فقال: إذن لا يقضي حاجتك، ولا تسعف بطلبتك، فعليك بمن يقدر على ذلك، وهو أجود الأجودين، فالتمس ما تؤمّله من قبله، فإنّي سمعت ابن عمي جعفر بن محمد يحدّث عن أبيه، عن جده، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أوحى الله إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه: وعزتي وجلالي لأُقطّعن أمل كل آمل أمّل غيري بالإياس، ولأكسونّه ثوب المذلّة في الناس، ولأبعدنّه من فرجي وفضلي، أيأمل عبدي في الشدائد غيري والشدائد بيدي؟ ويرجو سواي وأنا الغنيّ الجواد؟ بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني.

ألم تعلموا أنّ من دهاه نائبة لم يملك كشفها عنه غيري، فمالي أراه يأمله معرضاً عنّي، وقد أعطيته بجودي وكرمي ما لم يسألني؟

فأعرض عنّي، ولم يسألني، وسأل في نائبته غيري، وأنا الله أبتدئ بالعطية قبل المسألة. أفأُسأل فلا أجود؟ كلاّ. أ ليس الجود والكرم لي؟ أ ليس الدنيا والآخرة بيدي؟ فلو أنّ أهل سبع سماوات و أرضين سألوني جميعاً وأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي مثل جناح البعوضة، وكيف ينقص ملك أنا قيّمه، فيا بؤساً لمن عصاني، ولم يراقبني.

فقلت له: يابن رسول الله، أعد عليَّ هذا الحديث، فأعاده ثلاثاً، فقلت: لا والله ما سألت أحداً بعدها حاجة. فما لبث أن جاءني الله برزق من عنده»[1].

❊

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

استجابة الدعاء

الدعاء محفوف بالتوفيق و الاستجابة :

الدعاء محفوف برحمة الله من جانبين: بالتوفيق من جانب الله، وبالاستجابة من الله تعالى؛ فلا يقبل العبد على الدعاء إلاّ بتوفيق من الله، ومن دون أن يرزق الله تعالى عبده التوفيق للدعاء لا يتوفق العبد للإقبال على الله في الدعاء، ولابُدّ من هذا التوفيق قبل الدعاء، فإذا دعا العبدُ الله استجاب الله لدعائه: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾.

إذن يسبق الدعاء التوفيق من الله، وتلحق الدعاء الاستجابة من الله، والدعاء محفوف بهما، وهما بابان من أبواب رحمة الله، تنفتحان على العبد قبل وبعد الدعاء، وقد روي عن رسول الله ﷺ: «من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة»[1].

وعن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «فذكروك

(١) الميزان ٢: ٤٢، نقلاً عن الدر المنثور.

بمنّك وشكروك...»[1]؛ فإذا ذكر العبد ربّه فهو بعصمة من الله وفضله يستحق عليه الشكر من العبد.

وعنه عليه السلام في مناجاة المطيعين من المناجاة الخمس عشرة المعروفة: «فأنا بك ولك، ولا وسيلة لنا إليك إلاّ أنت».

إذن لا يذكر العبد ربّه إلاّ بعد أن يسبق هذا الذكر منٌّ وفضلٌ من الله، ولا وسيلة للعبد إلى الله إلاّ بفضله ورحمته فإذا ذكر العبد ربّه فبفضل الله، وإذا دعاه فبتوفيقه تعالى، وإذا شكره فبرحمته، وفي دعاء «عرفة» يقول الإمام الحسين عليه السلام: «لم يمنعك جهلي وجُرأتي عليك أن دللتني إلى ما يقربني إليك ووفقتني لما يزلفني لديك».

ومن رقائق الأدعية الدعاء بالتوفيق للدعاء، فيدعو العبد ربّه سبحانه وتعالى أن يرزقه التوفيق للدعاء. وقد ورد في أدعية الصحيفة عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «وأعمر ليلي بإيقاظي فيه لعبادتك، وإنزال حوائجي بك»[2].

(١) الصحيفة السجادية، دعاء ١٤٢ في وداع شهر رمضان.

(٢) الصحيفة السجادية ، الدعاء : ٤٧

وعن الإمام الصادق عليه السلام في طلب التوفيق من الله تعالى: «فأعنّي على طاعتك، ووفقني لما أوجبت عليَّ من كل ما يرضيك، فإنّي لم أرَ أحداً بلغ شيئاً من طاعتك إلاّ بنعمتك عليه قبل طاعته، فأنعم عليّ بنعمة أنال بها رضوانك»[1].

وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «اللّهمّ اجعلني أصول بك عند الضرورة، وأسألك عند الحاجة... وأتضرع إليك عند المسكنة ولا تفتنّي بالاستعانة بغيرك إذا اضطررت»[2].

قيمتان للاستجابة:

للاستجابة من الله تعالى لدعاء العبد قيمتان، وليس قيمة واحدة. إحداهما أعظم من الأُخرى.

أمّا القيمة الدنيا فهي إنجاز المطلب والمسألة التي طلبها الإنسان من الله تعالى لدنياه أو آخرته، أو لهما معاً.

وأمّا القيمة العليا فهي نفس الإجابة من الله تعالى لعبده فإنّ

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٣٢٠.

(٢) الصحيفة السجادية ، الدعاء: ٢٠.

في كل إجابة إقبال من الله تعالى على عبده، كما أنّ في كل دعاء إقبال من العبد على الله تعالى.

ومهما كان لشيء من ثمن وحساب وحدّ، فلا حساب ولا حدّ لقيمة إقبال الله تعالى على عبده.

ولا حدّ لسعادة العبد إذا كان موضع رعاية الله تعالى وعنايته وإقباله الخاص، وتلك سعادة ليس فوقها سعادة أن يخصّ الله تعالى عبداً من عباده فيقبل عليه، ويسمع منه، ويستجيب له، ويشعره بالاستجابة مهما كانت قيمة المطلب والمسألة التي طلبها العبد من الله تعالى، روي عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال: «لقد دعوت الله مرة فاستجاب، ونسيت الحاجة، لأنّ استجابته بإقباله على عبده عند دعوته أعظم وأجل مما يريد منه العبد، ولو كانت الجنّة ونعيمها الأبد، ولكن لا يعقل ذلك إلاّ العالمون، المحبون، العابدون، العارفون، صفوة الله، وخاصته»[1].

فالدعاء والإجابة إذن علاقة متبادلة بين الله تعالى وعبده،

(١) مصباح الشريعة: ١٤ ـ ١٥ ؛ بحار الأنوار ٩٣: ٣٢٣.

من أفضل ما تكون العلاقة وأشرفها، وأيّ علاقة بين الله تعالى وعباده أفضل من أن يقبل العبد على ربه بالحاجة والطلب والسؤال، ويقبل الله تعالى على عبده بالإجابة ويخصّه بها.

إنّ نشوة ولذة هذه العلاقة بالله وهذه العناية والتوفيق من الله تعالى لعبده، حيث خصّه بمناجاته وذكره ودعائه، وأكرمه بدعائه ولقائه وقربه واستجابته...أقول: إنّ لذة هذه العلاقة بالله والعناية من الله تعالى لعبده تستغرق الإنسان، وتشغله عن حاجته التي رفعها إلى الله.

وأيُّ لذة توازن هذه اللذة؟ أم أيّ متعة تعادل متعة الحضور بين يدي الله ولقاء الله ومناجاته وذكره والاشتغال بالنظر إلى جلاله وجماله، والوقوف بين يدي الله للدعاء نحو من الحضور بين يدي الله ولقاء الله، ومناجاته وذكره.

يقول أحد العارفين: مما يقبح بالإنسان أن يطلب في حضور الله من الله غير الله، وأن ينشغل في حضرته تعالى بغير جلاله وجماله.

وقد روي عن رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن الله: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «وانّ العبد لتكون له الحاجة إلى الله فيبدأ بالثناء على الله والصلاة على محمد وآله حتى ينسى حاجته فيقضيها من غير أن يسأله إياها»[٢].

وفي مناجاة المحبين للإمام زين العابدين عليه السلام: «...اجعلنا ممن هيّمت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك وفرّغت فؤاده لحبّك، ورغّبته فيما عندك... وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك»[٣].

علاقة الاستجابة بالدعاء:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٣٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣١٢.

(٣) مناجاة المحبين من المناجاة الخمس عشرة.

ما هي علاقة الاستجابة بالدعاء؟ وكيف تتم الاستجابة؟ هذا ما نحاول أن نتحدث عنه إن شاء الله في هذا الفصل من هذه المقالة.

إنّ الاستجابة من عند الله تعالى تجري ضمن قوانين وسنن إلهية، كما هو شأنه تعالى في سائر أفعاله. فليس في ساحة الله تعالى انفعال، كما هو الحال عندنا نحن البشر، إذا غضبنا وإذا رضينا، وإذا تذمرنا، وإذا انشرحنا، وإذا نشطنا، وإذا مللنا. وإنّما فعل الله تعالى قانون وسنّة، ولا يختلف ذلك في رضاً أو غضب، أو بسط أو قبض، أو عطاء أو إمساك، كل ذلك يجري ضمن سنن وقوانين إلهية ثابتة.

وهذه السنن الإلهية، تجري في أُفق الغيب (الميتافيزيقا) كما تجري في الفيزياء والكيمياء والميكانيك من غير فرق. ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾[1]. ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً**﴾[2]. فما هي سنة الله تعالى في استجابة الدعاء؟

(١) الأحزاب: ٦٢، الفتح: ٢٣.

(٢) فاطر: ٤٣.

الدعاء مفتاح الرحمة:

وقد ورد في النصوص الإسلامية التعبير عن العلاقة بين الدعاء والإجابة بأنّ الدعاء مفتاح الإجابة، وهذه الكلمة تقرر نوع العلاقة بين الدعاء والاستجابة.

عن الإمام علي عليه السلام: «الدعاء مفتاح الرحمة»[1].

وفي وصية للإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى ابنه الحسن: «ثم جعل في يدك مفاتيح خزائنه، بما أذن فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب خزائنه»[2]. وللتعبير ظلال واضحة في العلاقة بين الدعاء والاستجابة (فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب خزائنه). إذن الدعاء هو المفتاح الذي نفتح به خزائن رحمة الله.

وخزائن رحمة الله لا نفاد لها، ولكن ليس كلّ الناس يملكون مفاتيح خزائن رحمة الله، وليس كل الناس يحسن فتح خزائن رحمة الله.

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٣٠٠.

(٢) بحار الأنوار ٧٧: ٢٩٩.

وقد روي عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾[1] أنّه قال: «الدعاء»[2]. أي إنّ الدعاء هو هذا المفتاح الذي به يفتح الله للناس أبواب رحمته، والذي جعله الله بيد عباده.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من فتح له من الدعاء منكم فتحت له أبواب الإجابة»[3]. والله تعالى هو الذي يفتح للعبد بالدعاء، وهو الذي يفتح له أبواب الإجابة.

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام: «من قرع باب الله سبحانه فتح له»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «أكثر من الدعاء، فإنه مفتاح كل رحمة، ونجاح كل حاجة، ولا ينال ما عند الله إلاّ بالدعاء، وليس باب يكثر قرعه إلاّ يوشك أن يفتح لصاحبه»[5].

---

(١) فاطر: ٢.

(٢) بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٩.

(٣) كنز العمال، ح ٣١٥٦.

(٤) غرر الحكم، ٨٢٩٢.

(٥) بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٥ ؛ وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٦، ح ٨٦١٦.

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام: «الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح، وخير الدعاء ما صدر عن صدر نقي وقلب تقي»[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا أدلّكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم، ويدرّ أرزاقكم؟ قالوا: بلى، قال: تدعون ربكم بالليل والنهار، فإنّ سلاح المؤمن الدعاء»[2].

العمل والدعاء مفتاحان لرحمة الله:

والله تعالى جعل في أيدينا مفتاحَيْن نستفتح بهما خزائن رحمة الله، ونطلب بهما رزقه وفضله، وهذان المفتاحان هما: «العمل» و«الدعاء»؛ وكل منهما لا يغني عن الآخر. فلا العمل يغني عن الدعاء، ولا الدعاء يغني عن العمل، فلا يصح أن يكتفي الإنسان بالدعاء عن العمل.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيته لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أباذر، مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر»[3].

---

(١) وسائل الشيعة ٤: ١٠٩٤، ح ٨٦٥٧ ؛ وأُصول الكافي ٢: ٥١٧.

(٢) وسائل الشيعة ٤: ١٠٩٥، ح ٨٦٥٨.

(٣) وسائل الشيعة، أبواب الدعاء، باب ٣٢، ح ٣.

وعن الإمام الصادقعليه السلام: «ثلاثة تُرد عليهم دعوتهم: رجل جلس في بيته وقال: يا ربِّ ارزقني، فيقال له: ألم أجعل لك السبيل إلى طلب الرزق؟...»[1].

ولا يصح أن يكتفي الإنسان بالعمل عن الدعاء.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ لله عباداً يعملون فيعطيهم، وآخرين يسألونه صادقين فيعطيهم، ثم يجمعهم في الجنة. فيقول الّذين عملوا: ربّنا، عملنا فأعطيتنا، فبما أعطيت هؤلاء؟ فيقول: هؤلاء عبادي، أعطيتكم أُجوركم ولم ألتكم من أعمالكم شيئاً، وسألني هؤلاء فأعطيتهم وأغنيتهم، وهو فضلي أُوتيه من أشاء»[2].

وقد جعل الله تعالى الدعاء جابراً لعجز الإنسان في العمل، لئلاّ يعتمد الإنسان على نفسه، ويغتر بما أُوتي من حول وقوة، وبما يقوم به من عمل.

إذن العمل والدعاء هما مفتاحان من أعظم المفاتيح التي يستفتح الإنسان بهما رحمة الله. ولسنا الآن بصدد البحث عن

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٥٠، ح ٣.

(٢) وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٤، ح ٨٦٠٩.

«العمل» وعلاقته بـ«رحمة الله» في مقابل العلاقة بين «الدعاء» و«خزائن رحمة الله»، وعلاقة «العمل» بـ«الدعاء»؛ فإن هذه العلاقة من أُمهات المسائل الإسلامية.

والله تعالى يعطي عباده بهما معاً «العمل والدعاء» ومعنى ذلك أنّ الله يعطي عباده «بما عندهم» و«ما ليس عندهم»، وما عندهم هو جهودهم وأعمالهم، وما يقدّمون إلى الله من جهد وإنفاق من أنفسهم وأموالهم وهو «العمل»، وما ليس عندهم هو فقرهم وحاجتهم إلى الله، وعرض الفقر والحاجة على الله. وكل منهما من مفاتيح رحمة الله في حياة الإنسان، وبكل منهما يستنزل الإنسان رحمة الله، بما يرفع إلى الله من جهده وعمله ونفسه وماله، وبما يرفع إلى الله من حاجته وفقره وعدمه واضطراره.

العلاقة بين الدعاء والعمل:

وليس من الصحيح أن نفهم (الدعاء) فهماً منفصلاً عن سنن الله تعالى، فإنّ الله تعالى قد سنّ لعباده سنناً في الكون، في شؤونهم وحاجاتهم، ولا يصح للناس أن يهملوا هذه السنن في

شؤونهم وحاجاتهم.

وليس الدعاء بديلاً عن هذه السنن، ولا يغني سلوك هذه السنن الإنسان عن الدعاء (أي أنّ سلوك هذه السنن لا يكون بديلاً عن الدعاء).

وفهم هذه النقطة من رقائق الثقافة الربانية في الإسلام، فلا يصح أن يكتفي الفلاّح عن حرث الأرض وسقيها وتشذيب الأرض من الأعشاب الزائدة ورعاية الزرع ومكافحة الأمراض النباتية من مزرعته... بالدعاء. فإنّ هذا دعاء لا يستجاب وهو مصداق قول الإمام الصادق عليه السلام: «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر». كما لا يستجاب دعاء المريض إذا أهمل الطبيب والدواء.

وكيف يستجاب مثل هذا الدعاء وقد أعرض صاحبه عن سنن الله تعالى، فلا يستجاب دعاءٌ إلاّ ضمن السنن الإلهية، فإنّ الذي يستجيب لدعاء عباده هو خالق هذه السنن في الطبيعة، وهو الذي أمر عباده بسلوك هذه السنن وأن يبتغوا رزقهم وحاجاتهم من خلال هذه السنن بقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ**

ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ...﴾.[١] ويقول تعالى: ﴿**فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ**﴾.[٢]

وكما لا يكون الدعاء بديلاً عن العمل كذلك لا يكون العمل بديلاً عن الدعاء. فإنّ مفاتيح هذا الكون بيد الله تعالى، والله يرزق عباده بالدعاء ما لا يقدرون عليه بالعمل، ويوفق عباده بالدعاء للأسباب الطبيعية ما لا يقدرون عليه بالعمل.

وليس معنى تمكين الله تعالى للإنسان من الأسباب الطبيعية للرزق أنّ الإنسان يستغني بالتعامل مع الأسباب الطبيعية من الدعاء والسؤال والطلب من الله تعالى. فإنّ الله تعالى هو الباسط القابض، المعطي المانع، النافع الضار المحيي المهلك، المعزّ المذل، الرافع الواضع، بيده مفاتيح هذا الكون، ولا يمتنع عن أمره، شيء في هذا الكون، ولا يخرج عن أمره وسلطانه شيء، وكل قوة وسلطان ونافع وضار في هذا الكون خاضع لأمره

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) الجمعة: ١٠.

وحكمه وسلطانه، وليس لقوى الطبيعة في هذا الكون الرحيب وجود مستقل عن سلطان الله وإرادته حتى يستغني الإنسان بالتعامل معها عن الدعاء والطلب والسؤال من الله تعالى.

ونحن نسبّح الله وننزهه تعالى عمّا يقول اليهود: ﴿**يَدُ اللّه مَغْلُولَةٌ**﴾ ونقول بما يقول القرآن: ﴿**بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتان**﴾.(١) فنتعامل مع الله في كل حال، ولا نفصل بين التعامل مع الله والتعامل مع السنن الذي جعلها الله تعالى وسائل لرزق عباده ونعتقد أنّ هذه القوى والسنن تنفعنا وتضرنا في امتداد إرادة الله تعالى ومشيئته وسلطانه، وليس في عرض إرادته وسلطانه، ولا مستقلاً عن إرادته تعالى وسلطانه.

ونلمس يد الله تعالى و رحمته و فضله و حكمته في كل صغيرة وكبيرة من أُمورنا وشؤوننا، ونلمس إرادة الله وتوفيقه وفضله في مسيرة حياتنا كلها، وفي كل منعطف من منعطفات حياتنا فنحن نحتاجه تعالى في كل لحظة ونفتقر إلى رحمته

(١) المائدة: ٦٤.

وفضله ورعايته وتسديده وتوفيقه وهدايته في كل لحظة من لحظات حياتنا، وندعوه تعالى أن يتولى كل أُمورنا بالتسديد، والتأييد، والهداية، والتوفيق، ونعوذ بوجهه الكريم من أن يكلْنا إلى أنفسنا طرفة عين، ونسأله تعالى أن يتفرد بكل حاجاتنا وشؤوننا، ولا يحوجنا إلى غيره.

وليس معنى هذا الدعاء أن يعزل الإنسان حاجاته وأُموره عن الناس والأسباب الطبيعية في هذا الكون، إذا دعا الله تعالى أن يتفرّد بها... وإنما معنى ذلك أن يدعو الله تعالى ليجعل حاجته إلى غيره تعالى في امتداد حاجته إليه تعالى، وأن يجعل اعتماده على غيره تعالى في امتداد اعتماده عليه تعالى، وأن يجعل تعامله مع غيره تعالى في امتداد تعامله مع الله تعالى، وليس في عرضه، ولا مستقلاً عنه... فكل هذا الكون أسباب مسخّرات لله تعالى، سخّرها لخلقه.

والتعامل مع هذه الأسباب، والأخذ منها، والاعتماد عليها في امتداد التعامل مع الله، والأخذ من الله، والاعتماد على الله ومن

صلب التوحيد الذي يدعو إليه القرآن وليس مع الله ولا مستقلاً عن الله.

ومن هذا المنطلق نقول أن على الإنسان أن يدعو الله تعالى في كل شيء ويسأله كل شيء، في صغائر أُموره وكبارها من ملح عجين خبزه، وعلف دابته، إلى الانتصار على الأعداء في ساحات المواجهة والقتال، ولا يعزل شأناً من شؤون حياته صغيراً أو كبيراً عن هذه الكليّة (كلية الدعاء والسؤال من الله)، ولا يستغني عن الله تعالى في شيء من حاجاته وطلباته بغير الله تعالى من خلقه، ويعوذ بالله تعالى أن يكله إلى نفسه طرفة عين في صغيرة أو كبيرة من صغائر أُموره أو كبارها.

وفي نفس الوقت، نعتقد أنّ هذا اللجوء العام إلى الله في كل شيء، والسؤال، والطلب من الله في كل شيء... لا ينافي أن يأخذ الإنسان مما خلق الله تعالى وسخّر له في هذا الكون ويستعين به، فيدعو الله تعالى بالسلامة والشفاء لمرضه، ثم يأخذ بكل ما جعل الله تعالى في الطب من أسباب الشفاء والعلاج وبكل ما جعل الله

تعالى في الدواء من أسباب الشفاء.

بل نعتقد أنّ الإنسان إذا أخلّ بهذا التوازن فدعا الله تعالى بمعزل عن سنن الله تعالى في هذا الكون لا يستجاب له الدعاء ويكون كالرامي بلا وتر. بهذا الفهم الدقيق والصافي يثقّفنا الإسلام في التعامل مع الله تعالى ومع سنن الله في هذا الكون.

وبهذا الفهم نجد أنّ نصوص الأدعية زاخرة بالطلب إلى الله تعالى أن يتفرد بأمور عبده جميعاً وأن لا يحوجه إلى غيره، وأن لا يكله إلى نفسه، وأن يصل حبله بحبله تعالى، ويقطعه عن كل شيء يقطعه عن الله.

يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في الدعاء: «ولا تكلني إلى خلقك بل تفرّد بحاجتي، وتولَّ كفايتي، وانظر إليَّ، وانظر لي في جميع أُموري»[1].

وفي دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام: «اللّهمّ ما أخاف فاكفني، وما أحذر فقني، وفي نفسي وديني فاحرسني، وفي سفري

(١) الصحيفة الكاملة السجادية ، الدعاء: ٢٢.

فاحفظني، وفي أهلي ومالي فاخلفني، وفيما رزقتني فبارك لـي... وفي نفسي فذلّلني، وفـي أعـين النـاس فعظمنـي ومـن شـر الجـن والإنس فسلمني، وبذنوبي فلا تفضحني، وبسـريرتي فـلا تخزنـي، وبعملـي فـلا تبتلنـي، ونعمـك فـلا تسـلبني، وإلـى غيـرك فـلا تكلني»[1].

والآن نتحدث عن العلاقة بين الدعاء والاستجابة.

العلاقة بين الدعاء والاستجابة:

إنّ وعي الحاجة والفقر هو السر الـذي نسـتطيع مـن خلالـه أن نكتشف علاقـة الـدعاء بالاسـتجابة، ونفهـم كيـف يكـون الـدعاء مفتاحاً لرحمة الله، وكيف يسـتنزل الـدعاء رحمـة الله تعـالى. فـإنّ كل دعاء يجسّـد درجـةً مـن وعـي الفقـر، ويعبّـر عـن مرتبـة مـن مراتب وعي الحاجة إلى الله.

وبقدر ما يكون وعي العبد لحاجته إلى الله أكثر يكـون دعـاؤه أقرب إلى الاستجابة، وتكـون رحمـة الله أقـرب إليـه. فلـيس مِـن

(١) دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام.

شحٍّ ولا بخل في رحمة الله تعالى، وإنّما يختلف حـظّ النـاس مـن رحمـة الله لإخـتلاف أوانـي نفوسـهم و أوعيتهـا. ومـن عجـب أن الحاجة والفقر، ووعي الحاجة والفقر هو وعاء الإنسان الذي ينـال به رحمة الله، وكلما يكون وعيه لفقره إلى الله أكثر، يكون وعاؤه الذي ينال به رحمة الله أكبر.

والله تعالى يعطي كلاًّ بقدر وعائـه؛ وكـلّ ينـال مـن رحمـة الله بقدر ما يتسع له وعاؤه، وكلما كـان وعـاؤه أكبـر كـان حظّـه مـن رحمة الله أعظم. ويمكننا في هـذا السـياق أن نختصـر الـدعاء فـي ثلاث كلمات:

١ ــ الفقر إلى الله.

٢ ــ وعي الفقر.

٣ ــ رفعه ونشره وبثّه بين يدي الله.

والكلمة الثالثة تختلف عن الثانية والثانية تختلف عن الأُولـى. فإنّ الفقر غير وعي الفقر. فقد يكون الإنسان وهـو الفقيـر إلـى الله في كل شيء غير واع لفقره إلى الله. وقد يكون واعيـاً لفقـره إلـى

الله، ولكنّه لا يحسن أن يرفع فقره إلى الله وينشره ويبثه بين يديه، ولا يحسن السؤال والطلب والدعاء من الله. وعندما تجتمع هذه الكلمات الثلاثة يتحقق الدعاء.

والفقر هنا من الناحية الفلسفية ليس فقراً في الحدوث فقط، كما يفتقر البِناء إلى المهندس والبنّاء، وإنما هو فقر في الحدوث والبقاء، كما في حاجة الإنارة الكهربائية إلى السيال الالكتروني، فإنّ المصباح يضيء ما دام السيال الالكتروني متصلاً، فإذا انقطع السيال لحظة واحدة انقطع الضوء في نفس تلك اللحظة. وفقر الإنسان إلى الله من هذا القبيل في الحدوث والاستمرار، ووجود الإنسان، ومواهبه وحركته وحياته كلها ترتبط بالله تعالى، وتفتقر إلى الله لحظة بعد لحظة، وبصورة مستمرة ومتصلة. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.[1]

والحاجة والفقر تستنزلان رحمة الله تعالى وعاهما الإنسان أم لم يعهما، ورفعهما الإنسان إلى الله وعرضهما عليه تعالى أم لم يرفعهما، إلاّ أنّ الحاجة والفقر اللذين يعيهما الإنسان، ويرفعهما إلى الله، وينشرهما بين يدي الله تعالى أقوى في اجتذاب رحمة الله. وعليه فنحن نتحدث عن «الفقر» وعلاقته بـ«رحمة الله» قبل الوعي والرفع إلى الله، وبعد الوعي والرفع إلى الله.

الحاجة قبل الوعي و الرفع إلى الله :

إنّ الحاجة إلى الله، بحدّ ذاتها تستنزل رحمة الله حتّى قبل الوعي والرفع إلى الله. ومثلها مثل الأرض الواطئة الهشّة التي تجتذب المياه، وتمتصها. كما أنّ مثل الاستكبار عن الله والغرور مثل الأرض الناتئة الصلدة التي تردّ الماء. كذلك المتسكبرون عن عبادة الله ودعائه يردّون رحمة الله تعالى فلا ينالهم منها شيء، وإن وسعت السماوات والأرضين.

إنّ بين الفقر والرحمة علاقة تكوينيّة، كل منهما يطلب الآخر ويسعى إليه، الفقر إلى الله يسعى إلى رحمة الله، ورحمة الله تطلب مواضع الحاجة والفقر، كما أن بين ضعف الطفل وحاجته وبين حنان الأُم وعطفها علاقة وصلة، كلّ منهما يطلب الآخر،

(١) فاطر: ١٥.

ضعف الطفل يطلب حنان الأُم، وحنان الأُم و رحمتها يطلبان ضعف الطفل لرعايته. بل في دائرة الممكنات كل منهما يحتاج الآخر، وليست حاجة الأُم إلى رعاية ضعف الطفل بأقل من حاجة الطفل إلى حنان الأُم.

كذلك العالم يطلب الجاهل ليعلِّمه، كما أنّ الجاهل يطلب العالم ليتعلَّم منه، وليست حاجة العالم إلى تعليم الجاهل بأقل من حاجة الجاهل إلى التعلم من العالم.

والطبيب يطلب المريض ليداويه، ويعلن عن مهنته واختصاصه ليدعو المرضى إليه، كما أنّ المريض يطلب الطبيب، وليست حاجة الطبيب إلى المريض بأقل من حاجة المريض إلى الطبيب.

والقوي يبحث عن الضعيف ليحميه، كما أنّ الضعيف يبحث عن القوي ليحتمي به، وليست حاجة القوي إلى أن يحمي الضعيف بأقل من حاجة الضعيف إلى الاحتماء بالقوي. إنّها سنّة الله في كل شيء.

وكذلك في رحمة الله تعالى وفقر عباده، فكما أنّ الفقر يطلب الرحمة كذلك الرحمة تطلب الفقر، والله تعالى تتنزّه صفاته الحسنى عن الحاجة، فلا حاجة في ساحة الله تعالى، ولكن رحمة الله تطلب مواضع الحاجة والفقر.

ولا شحّ، ولا بخل في ساحة الله، واختلاف مراتب الرحمة تتبع اختلاف مراتب الحاجة والفقر. إنّ الأرض تحتاج إلى الحرارة، والنور، والماء، والهواء، لكي تُنبت، فيهبها الله تعالى الحرارة، والنور، والماء، والهواء، وهذه الحاجة: طلب وسؤال، ولكن بلسان التكوين، وكلما يحتاجه «الشيء»، ويقتضيه بتكوينه، فهو طلبه وسؤاله، بلسان التكوين، يقول تعالى: ﴿**يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾[1] وما يحتاجه الشيء ويطلبه بلسان التكوين لا يتخلف عن الإجابة.

إنّ الطفل الرضيع الذي لا يعي من نفسه شيئاً ليعطش ويشتد به العطش فيعلِّمه الله تعالى أن يبكي ويصرخ، ويُعطف عليه قلب

(١) الرحمن : ٢٩.

أُمه وأبيه ليدركاه ويسقياه، وعطش الرضيع وجوعه يستنزلان رحمة الله تعالى وعطفه، من دون طلب ودعاء ويتألم المريض ويعاني من المرض فيستنزل مرضه وألمه رحمةَ الله تعالى.

وإنّنا لنعصي الله تعالى ونرتكب الذنوب والمعاصي، فتطلب ذنوبنا ومعاصينا عفو الله تعالى ومغفرته بالسؤال والدعاء، ومن دون سؤال ودعاء أحياناً، ما لم يتمرد العبد على مولاه ويقسو قلبه ويُطرد عن ساحة رحمة الله. ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾.(1) وهذه العلاقة بين العفو والرحمة من الله والذنوب والمعاصي منّا، وبين قوة الله تعالى وضعفنا، وبين غنى الله تعالى وفقرنا، وبين شفاء الله تعالى لنا وأمراضنا، وبين إنقاذ الله تعالى لنا واضطرارنا إليه، وبين علم الله تعالى وجهلنا وشططنا حتى عن غير سؤال وطلب ودعاء... .

أقول: إنّ هذه العلاقة من أسرار هذا الدين كما هي من أسرار

(1) الزمر: ٥٣.

هذا الكون وقوانينه. وما لم يفهم الإنسان هذا القانون في الكون، وفي علاقة الإنسان بالله تعالى، لا يستطيع أن يدرك طائفة واسعة من معارف هذا الدين وأسراره.

وكم من مريض شفي برحمة الله من غير سؤال ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾.(1) وكم من فقير جائع رزقه الله تعالى وأطعمه من جوع من غير سؤال ولا دعاء. وكم من مضطر في لجج البحار أو تحت الأنقاض أو تحت ظلال السيوف أو في وسط الحريق، أدركته رحمة الله تعالى وأنقذته من غير سؤال ولا دعاء. وكم من ظمآن بلغ به الظما مبلغاً استنفد مقاومته فأدركته رحمة الله تعالى وأروته من غير سؤال ولا طلب. وكم من إنسان واجه الأخطار، وكان على قاب قوسين منها وهو يعلم أو لا يعلم، فجاءه «ستر الله» فأنقذه منها. وكم من إنسان وصل إلى طريق مسدود في حياته ففتح الله تعالى له ألف طريق، وكل ذلك من غير سؤال ولا طلب ولا دعاء، بل دون أن يعرف صاحبه الله

(1) الشعراء: ٧٩.

تعالى كثيراً، فضلاً عن أن يعرفه فلا يطلب منه. وكم من رضيع تدركه رحمة الله تعالى دون أن يطلب من الله، ودون أن يسأل الله تعالى[1].

وقد ورد في دعاء الافتتاح: «فكم يا إلهي من كربة قد فرجتَها، وهموم قد كشفتَها، وعثرة قد أقلتَها، ورحمة قد نشَرتَها، وحلقة بلاء قد فكَكتَها».

وورد في أدعية أيام رجب: «يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة».

وفي المناجاة الرّجبيّة: «ولكن عفوك قبل عملنا». إنّ عفو الله

(١) و هذا لا يعني أن الناس لا يموتون تحت الأنقاض في الزلازل، و لا يحترقون في الحرائق، و لا يهلكون في لجج البحار، و لا يموت إنسان من المرض و الألم، و لا يموت طفل رضيع. فقد صمم الله تعالى هذا الكون بموجب «الرحمة» و «الحكمة»؛ فإذا كانت حكمة الله تقتضي وقوع كارثة في إنسان أو حيوان أو نبات فلا يعني ذلك أن ننفي البعد الآخر من فضل الله تعالى و صفاته الحسنى، و هو الرحمة. و من الناس ممن يخضع لسنن الله تعالى و حكمته في البلاء و الضراء، لم يلمس رحمة الله تعالى الواسعة في اليسر و العسر، و في اللحظات الحرجة من حياته، و من الناس من لم يتعرف على رحمة الله تعالى الواسعة في لحظات الاضطرار القصوى في حياته.

تعالى يطلب سيّئاتنا.

إذن الحاجة والفقر من منازل رحمة الله تعالى، وحيث يكون الفقر وتكون الحاجة تجد رحمة الله تعالى.

وللعارف الرّومي الشهير بيت من الشعر في هذا الباب أذكر ترجمته. يقول العارف الرّومي: «لا تطلب الماء واطلب الظمأ حتّى يتفجّر الماء من كل أطرافك وجوانبك».

وقد وردت الإشارة إلى هذه العلاقة بين رحمة الله تعالى وحاجة عباده وفقرهم، في مناجاة بليغة ومؤثرة لأميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام نورد فيما يلي طرفاً منها:

«مولاي يا مولاي، أنت المولى وأنا العبد، وهل يرحم العبد إلاّ المولى؟ مولاي يا مولاي، أنت المالك وأنا المملوك، وهل يرحم المملوك إلاّ المالك؟ مولاي يا مولاي، أنت العزيز وأنا الذليل، وهل يرحم الذليل إلاّ العزيز؟ مولاي يا مولاي، أنت الخالق وأنا المخلوق، وهل يرحم المخلوق إلاّ الخالق؟ مولاي يا مولاي، أنت القوي وأنا الضعيف، وهل يرحم الضعيف إلاّ

القوي؟ مولاي يا مولاي، أنت الغني وأنا الفقير، وهل يرحم الفقير إلاّ الغني؟ مولاي يا مولاي، أنت المعطي وأنا السائل، وهل يرحم السائل إلاّ المعطي؟ مولاي يا مولاي، أنت الحيّ وأنا الميت، وهل يرحم الميت إلاّ الحي؟».

وهذه هي الحاجة قبل الوعي والطلب (الفقر غير الواعي).

الحاجة بعد الوعي والطلب (الفقر الواعي):

وهي الحاجة التي يعيها الإنسان ويرفعها إلى الله. فقد يعي الإنسان فقره إلى الله ويرفعه وينشره بين يدي الله، ويسأل الله تعالى ويدعوه ويطلب منه، وهو الفقر الواعي.

وهذه الحاجة المقترنة بالوعي والطلب تستنزل رحمة الله أكثر من الشطر الأول من الحاجة غير المقترنة بالدعاء. ورحمة الله تنزل هنا وهناك، ولكن الحاجة إذا اقترنت بالطلب والدعاء تكون أقوى في اجتذاب رحمة الله تعالى، ورحمة الله تستجيب لها أكثر مما تستجيب لغيرها. وإلى هذه الحاجة تشير الآية الكريمة من

سورة النمل: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾.[1] والآية الكريمة تركّز على نقطتين اثنتين: «اضطرار» و«دعاء»، ﴿**الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾، وكل منهما يجذب الرحمة، الإضطرار والدعاء؛ فإذا اجتمع الإضطرار والدعاء فلابد أن تهبط عندهما رحمة الله تعالى.

وقد ورد تأكيد بليغ في الإسلام على الدعاء والسؤال من الله، والإهتمام برفع الحاجة إلى الله، ونشرها بين يديه عزّ شأنه، وابتغاء رحمته. وتقترن الإستجابة بالدعاء في النصوص الإسلامية: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾. ويؤكّد القرآن أنّ قيمة العبد عند الله تعالى بدعائه: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ**﴾.[2] ويؤكّد القرآن أنّ الصدود عن الدعاء استكبار عن عبادة الله تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾. وواضح أنّ الاستكبار عن

(١) النمل: ٦٢.

(٢) الفرقان: ٧٧.

عبادة الله استكبار عن الله. والذي يستكبر عن الله يطرد من رحمة الله ويدخل جهنَّم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

القوانين الثلاثة في علاقة الدعاء بالاستجابة:

ونتساءل لماذا يكون هبوط الرحمة أشد إذا اقترنت الحاجة بالدعاء والسؤال، ولماذا تتأكد العلاقة بين الدعاء والاستجابة أكثر مما هي في الحالة السابقة بين الحاجة غير المقترنة بالدعاء ورحمة الله؟ إنّ الإجابة على هذا التساؤل في الحقيقة إجابة على السؤال الذي استفتحنا به هذا الفصل عن سرّ العلاقة بين الدعاء والاستجابة وتحليل هذه العلاقة.

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إنّ الدعاء يستنزل رحمة الله تعالى من خلال ثلاثة قوانين:

القانون الأول:

هو علاقة رحمة الله بالفقر والحاجة؛ وقد شرحنا هذا القانون فلا نعيد. وكل حالة من حالات الدعاء تتضمن حالة الحاجة والفقر إلى رحمة الله. وهذا هو المنزل الأول من منازل رحمة الله.

القانون الثاني:

في علاقة الفقر والحاجة بعد الوعي برحمة الله تعالى. والفقر بعد الوعي يختلف عن الفقر قبل الوعي. وكل منهما فقر وحاجة، وكل منهما يجتذب رحمة الله تعالى ويستنزلها، ولكن أحدهما من الفقر غير الواعي والآخر من الفقر الواعي.

والفقر غير الواعي أن يفتقر الإنسان إلى الله وهو لا يعي فقره وحاجته إلى الله، بل قد لا يعرف الله. والفقر الواعي أن يعي صاحبه فقره وحاجته إلى الله، وهذا الوعي يخرج الفقر إلى الله من دائرة الظلمة إلى النور والوعي، بينما الفقر غير الواعي يبقي في دائرة الظلمة، لا يشعر به صاحبه.

ولكن الفقير الذي يعي فقره إلى الله، يستدعي من رحمة الله وفضله ما لا يستدعيه الفقير الذي لا يعي فقره وحاجته إلى الله. وكأنما وعي الفقر يركّز ويكرّس حالة الفقر، وكلما كان الفقر أكبر و أركز وأكثر تكريساً كان وعاء النفس لتقبل رحمة الله أوسع، وقد ذكرنا من قبل أنّ خزائن رحمة الله تعالى لا شحّ فيها

ولا عجز، وإنما أوعية الناس تختلف في تقبل رحمة الله، فمن كان وعاؤه أكبر كان حظّه من رحمة الله أكثر؛ والوعاء هنا الفقر ولكن يتركزّ الفقر وكلما كان الإنسان أوعى لفقره وحاجته إلى الله.

إنّ المجرم الخاطئ الذي يؤخذ لينفّذ به حكم الإعدام وهو يعلم بذلك، يستعطف قلوب الناس والحكام أكثر من المجرم الذي يؤخذ لتنفيذ حكم الإعدام به وهو لا يعلم إلى أين يذهب، علماً بأنهما يؤخذان إلى الإعدام على نحو سواء، إلاّ أنّ المجرم المعترف بجريمته والعارف بالعقوبة يستعطف الناس أكثر من غيره، لوعيه للجريمة والعقوبة وعدم وعي الثاني لهما.

أمارات وعي الفقر إلى الله:

ولوعي الفقر إلى الله في دعاء الإنسان أمارات وعلامات؛ فكلما يكون وعي الإنسان لفقره وحاجته إلى الله أكثر، تظهر هذه الأمارات في دعائه بشكل أوضح.

و من أهم هذه الأمارات: الخشوع والخضوع والبكاء

والتضرع والإقبال على الله، وحالة الاضطرار واللجوء في الدعاء إلى الله.

وقد ورد التأكيد في النصوص الإسلامية على هذه الحالات والأمارات في الدعاء، وتأكيد دورها في استجابة الدعاء. وفي الحقيقة إنّ هذه الأمارات تكشف عن تركيز العامل الثاني والثالث في الدعاء، وهما عامل «وعي الفقر» وعامل «الطلب والسؤال»، وكلما كان تضرع الإنسان وخشوعه واضطراره في الدعاء أكثر كان ذلك دليل وجود عمق أكثر للطلب والسؤال أولاً، ولوعي العبد لحاجته وفقره إلى الله ثانياً. وهما سبب تأكيد استجابة الدعاء في هذه الأحوال.

وقد ورد الأمر بهذه الحالات والترغيب إليها في القرآن الكريم نذكر جانباً منها. يقول تعالى:

١ ـ ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[1].

٢ ـ ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

---

(١) الأنعام: ٦٣

الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

والتضرّع، والخوف حالتان تؤكّدان وعي الإنسان لفقره إلى الله وحاجته إلى الأمن من جانب الله. والطمع حالة تؤكد وعي الإنسان لرغبته فيما عند الله. والخفية في الدعاء تمنح الإنسان الإقبال على الله.

٣ ـ **﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾**[2].

وفيه اعتراف وإقرار بالظلم من العبد بين يدي الله تعالى **﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**. والاعتراف بالظلم من وعي الظلم، وهو يعمّق حالة الاستغفار واللجوء إلى الله في نفس العبد المذنب، وكلما كان العبد أوعى لظلمه وذنبه كان اضطراره ولجوؤه إلى الله واستغفاره لله تعالى أكثر.

---

(١) الأعراف : ٥٦.

(٢) الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨.

٤ ـ **﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾**[1]. والرغبة، والرهبة، والخشوع حالات نفسيّة تؤكّد وعي الإنسان لفقره إلى الله، وخوفه من عقوبة الله ورغبته فيما عند الله من الرزق الحسن والثواب.

٥ ـ **﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾**[2]. والاضطرار حالة نفسيّة تؤكّد وعي الإنسان لحاجته وفقره إلى الله، ووعيه لانقطاع كل وسيلة وسبب للنجاة والنجدة إلاّ من عند الله.

٦ ـ **﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾**[3].

* * *

والإجابة من جانب الله تعالى تأتي على قدر وعي الإنسان لفقره واضطراره إلى الله، وعلى قدر الحاجة في السؤال والدعاء،

---

(١) الأنبياء : ٩٠.

(٢) النمل: ٦٢.

(٣) السجدة : ١٦.

يقول تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.[1] وقرب رحمة الله تعالى من العبد يتناسب طرداً مع ما في نفس العبد من الخوف من عذاب الله والطمع في إحسان الله.

وكلما كان الخوف في نفس العبد أشد كان اللجوء إلى الله تعالى في نفسه أقوى، وكان دعاؤه لله تعالى أقرب إلى الاستجابة. وكلما كان طمعه في ما عند الله من الرزق الحسن والثواب أكثر كان دعاؤه لله أقرب إلى الاستجابة.

القانون الثالث:

في العلاقة بين الدعاء والاستجابة، وهي من أوضح القوانين التي يدركها الإنسان بفطرته، وعليه تنص الآية الكريمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. فإنّ لكل دعوة إجابة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وهذا قانون فطري و واضح، يتقبله الإنسان بفطرته، وهو قانون عام إلاّ أن يمنع عن الإجابة عائق.

(١) الأعراف: ٥٦.

والعوائق التي تمنع عن الإجابة على نوعين: فمنها ما يرجع إلى المسؤول، ومنها ما يرجع إلى السائل. والذي يرجع إلى المسؤول إمّا أن يكون من قبيل العجز عن الإجابة، أو من قبيل البخل والشحّ بالإجابة. وقد يرجع إلى السائل نفسه، كما لو كانت الإجابة ليست في صالحه وهو يجهل ذلك، والله تعالى يعلم به.

أمّا النوع الأول من العوائق فلا وجود له في ساحة سلطان الله، فإنّ سلطانه سبحانه وتعالى سلطان مطلق، لا يعجز عن شيء ولا يفوته شيء، ولا يخرج عن سلطانه وقدرته شيء، ولا حدّ لجوده وكرمه، ولا تنقص خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً. إذن فلا يمكن أن نتصور عائقاً عن الإجابة من النوع الأول.

وأمّا العوائق التي ترجع إلى السائل فهي أمر ممكن، ويتفق كثيراً أنّ الله تعالى يؤخر إجابة دعاء عباده لا لبخل و شحّ في ساحته، ولا لعجز، ولكن لعلمه بأنّ التأخير أصلح لحالهم، ويتفق

كثيراً أن الإجابة تضر بالعبد، فلا يستجيب الله تعالى لدعوة عبده، ولكن يعوضه عن الإجابة بخير واسع في الدنيا، ومغفرة للذنوب أو درجات رفيعة في الآخرة، أو كل ذلك جميعاً.

ونحن هنا نتحدث عن النوع الأول من العوائق أولاً، ثم نتحدث عن النوع الثاني من العوائق ثانياً، ثم نتحدّث عن العلاقة بين الدعاء والإجابة ثالثاً.

النوع الأول من العوائق:

أمّا العوائق من النوع الأول فلا وجود لها، كما ذكرنا في ساحة سلطان الله تعالى وجوده؛ فإنّ سلطان الله سلطان مطلق لا يعجز عن شيء، ولا يفوته شيء، ولا حدّ لسلطانه وقدرته، وكل شيء في الكون خاضع لسلطانه وقدرته، لا يمتنع عن إرادته وأمره شيء إذا قال له: «كن». ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1]. ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن

(١) البقرة : ١١٧.

فَيَكُونُ﴾[1]. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2].

وليس في الكون شيء يخرج عن قبضة سلطانه وقدرته: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[3]. ﴿إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

وأمره سبحانه وتعالى نافذ لا يوقفه شيء، ولا يعلقه شيء، ولا يعيقه شيء. ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5]. ذلك من حيث سعة سلطانه وقدرته ونفوذ حكمه وأمره.

ولا وجود كذلك لشحّ أو بخل في ساحته، فهو سبحانه وتعالى الجواد الذي لا حدّ لجوده وكرمه. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[6]. ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ

(١) النحل : ٤٠.

(٢) يس : ٨٢.

(٣) الزمر : ٦٧.

(٤) آل عمران : ١٦٥

(٥) النحل : ٧٧

(٦) غافر : ٧.

وَاسِعَةٍ﴾[1] وعطاؤه سبحانه عطاء ممدود غير مجذوذ: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[2]. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ... عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[3].

وإذا أراد الله إرسال رحمة فلا ممسك لها: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾[4].

ولا نفاد لخزائن رحمته: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[5]. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[6].

ولا تنقضي خزائن رحمته بما يهب عباده من رزق، ولا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً.

---

(١) الأنعام : ١٤٧.

(٢) الإسراء : ٢٠.

(٣) هود : ١٠٨.

(٤) فاطر : ٢.

(٥) المنافقون : ٧.

(٦) الحجر : ٢١.

وفي دعاء الافتتاح: «الحمد لله الفاشي في الخلق أمره وحمده... الباسط بالجود يده، الذي لا تنقص خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً».

يقول أميرالمؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام برواية الشريف الرضي: «اعلم أنّ الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء، وتكفّل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنعك إن أسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يفضحك حيث الفضيحة، ولم يشدد عليك في قبول الإنابة، ولم يناقشك بالجريمة، ولم يؤيسك من الرحمة، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، وحسب سيئتك واحدة، وحسب حسنتك عشراً، وفتح لك باب المتاب وباب الاستعتاب.

فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضيت إليه بحاجتك، وأبثثته ذات نفسك، وشكوت إليه همومك، واستكشفته

كروبك، واستعنته على أُمورك، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائها غيره، من زيادة الأعمار وصحة الأبدان، وسعة الأرزاق. ثم جعل في يدك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب النعمة، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنّك إبطاء إجابته، فإنّ العطية على قدر النيّة»[1].

وفي الحديث القدسي:

«يا عبادي، كلكم ضال إلاّ من هديته، فاسألوني الهدى أهدكم؛ وكلكم فقير إلاّ من أغنيته، فاسألوني الغنى أرزقكم؛ وكلكم مذنب إلاّ من عافيته، فاسألوني المغفرة أغفر لكم... ولو أنّ أولكم وآخركم وحيّكم وميتكم اجتمعوا فيتمنى كل واحد ما بلغت أُمنيته، فأعطيته لم يتبين ذلك في ملكي... فإذا أردت شيئاً فإنّما أقول له كن فيكون»[2].

(١) نهج البلاغة، قسم الرسائل و الكتب، الكتاب : ٣١.

(٢) تفسير الإمام: ١٩ ـ ٢٠، بحار الأنوار ٩٣ : ٢٩٣.

النوع الثاني من العوائق:

أمّا النوع الثاني من عوائق إجابة الدعاء فكثيرة.

فقد تضر السائل إجابة الدعاء وهو يجهل ذلك، والله تعالى أعلم بحاله وصلاحه وفساده منه.

وقد يضره الاستعجال بإجابة الدعاء، والله تعالى يعلم أنّ التأخير في الاستجابة أصلح لحاله وأنفع له، فيؤخر الله تعالى الإجابة دون أن يلغيها أو ينفيها.

وفي دعاء الافتتاح: «فصرت أدعوك آمناً، وأسألك مستأنساً، لا خائفاً ولا وجلاً، مدلاً عليك فيما قصدت فيه إليك، فإن أبطأ عني عتبت بجهلي عليك، ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأُمور».

وقد يؤخر الله تعالى إجابة دعاء عبده، كي يطول قيامه وتضرّعه بين يديه تعالى، والله تعالى يحب أن يطول وقوف عبده وتضرعه بين يديه؛ ففي الحديث القدسي: «يا موسى، إنّي لست بغافل عن خلقي، ولكني أُحب أن تسمع ملائكتي ضجيج الدعاء

من عبادي»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ العبد ليدعو فيقول الله عزّوجلّ للملكين: قد استجبت له، ولكن احبسوه بحاجته، فإني أُحب أن أسمع صوته، وإنّ العبد ليدعو فيقول الله تبارك وتعالى: عجّلوا له حاجته فإني ابغض صوته»[٢].

ولكن حتى لو كانت الإجابة تضره فإنّ الله تعالى لا يلغي الإجابة بشكل مطلق، وإنّما يبدله إلى كفارة لذنوبه، وغفران لها، أو إلى رزق يرزقه إياه في الدنيا عاجلاً، أو درجات رفيعة له في الجنة.

وفيما يلي نذكر ثلاثة أحاديث عن رسول الله ﷺ وأميرالمؤمنين عليه السلام في هاتين الحالتين: «التبديل» و«التأجيل».

«التأجيل» و«التبديل» في الإجابة:

عن رسول الله ﷺ: «ما من مسلم دعا الله سبحانه دعوة ليس

(١) عدة الداعي.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٢١، ح ٣.

فيها قطيعة رحم ولا إثم، إلاّ أعطاه الله إحدى خصال ثلاثة: إمّا أن يعجّل دعوته، وإمّا أن يؤخّر له، وإمّا أن يدفع عنه من السوء مثلها. قالوا: يا رسول الله، إذن نكثر. قال: أكثروا»[١].

وعن رسول الله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة، وما من مؤمن يدعو الله إلاّ استجاب له، إمّا أن يعجّل له في الدنيا، أو يؤجّل له في الآخرة، وإمّا أن يكفِّر من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بمأثم»[٢].

ويقول أميرالمؤمنين في وصيته لابنه الحسن عليهما السلام كما في رواية الشريف الرضي: «فلا يقنطنك إبطاء إجابته؛ فإنّ العطية على قدر النية، وربما أُخّرت عنك الإجابة؛ ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتاه، وأُوتيت خيراً منه، عاجلاً أو آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك.

فلربَّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أُوتيته؛ فلتكن مسألتك

(١) وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٦، ح ٨٦١٧.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ١٥، و ٤: ١٠٨٦، ح ٨٦١٨.

فيما يبقى لك جماله وينفى عنك وباله، والمال لا يبقى لك ولا تبقى له»[1].

وإذا جمعنا بين هذه النصوص نلتقي خمس حالات في الإجابة:

١ ـ «التعجيل» في الإجابة للحاجة التي يدعو الله تعالى بها العبد.

٢ ـ «التأجيل» في الإجابة للحاجة التي يسألها العبد من ربه.

٣ ـ «التبديل» في الإجابة وذلك بدفع السوء عن الداعي، إذا كانت إجابة الداعي إلى حاجته ليست في صالحه.

٤ ـ «التبديل» في الإجابة بما يرزق الله تعالى عبده من الدرجات والنعم والمنح في الآخرة، إذا كانت إجابة الداعي إلى طلبه ليست في صالحه.

عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام): «والله مصيّر دعاء المؤمنين يوم القيامة لهم عملاً يزيدهم في الجنة»[2].

(١) نهج البلاغة، قسم الرسائل و الكتب، الكتاب : ٣١.

(٢) وسائل الشيعة: ٤: ١٠٨٦، ح ٨٦١٥.

وفي حديث آخر عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): «والله ما أخّر الله عزّوجلّ عن المؤمنين ما يطلبون من هذه الدنيا، خير لهم عمّا عجّل لهم منها»[1].

٥ ـ «التبديل» في الإجابة بما يكفّر الله تعالى من ذنوبه وسيئاته، إذا كانت إجابة الداعي ليست في صالحه[2]. وقد لا يكون التبديل والتأجيل لمصلحة الداعي فقط في حالتي تأجيل الإجابة وإلغائها، وإنّما قد يكون ذلك لمصلحة النظام الذي يشمل السائل وغيره، فيكون في إجابة الدعاء أو التعجيل في الإجابة إخلال بمصلحة النظام الذي أقره الله تعالى للإنسان خاصة، أو الكون عامة.

عندما ينقلب «الدعاء» إلى «عمل»:

إنّ «الدعاء» و«العمل» مقولتان مختلفتان، وكل منهما من منازل رحمة الله، فإنّ العمل يستنزل رحمة الله تعالى كما يستنزل

(١) قرب الاسناد: ١٧١ ؛ أُصول الكافي: ٥٢٦.

(٢) الثلاثة الأخيرة تختص فقط بحالة إلغاء دعوة العبد، فقد يرزق الله تعالى عبده مع استجابة دعائه كفارة ذنوبه و دفع السوء عنه و درجات رفيعة في الآخرة.

الدعاء رحمة الله، يقول تعالى: **﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾**[١]. **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾**[٢]. وكذلك الدعاء من مفاتيح الرحمة **﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾**.

ولكن ليس كل ما يسأله الإنسان ممكناً في حساب النظام الكوني العام، فقد يدعو الإنسان الله تعالى بما لا يمكن في حساب النظام العام (القضاء والقدر)، فلا يستجاب الدعاء. وقد لا تكون الإجابة أو الاستعجال بها في صالح صاحب الدعاء، فماذا يكون مآل هذا الجهد الذي يبذله الإنسان في الدعاء؟

والجواب: أنّ الدعاء بنفسه يتحول إلى عمل وعبادة تستنزل رحمة الله عليه. فلا يكون إذن (القضاء والقدر) من مثبطات الدعاء، فإنّ الله تعالى إن لم يستجب لدعاء عبده، حوّله إلى عمل وعبادة يجزيه بها في الدنيا والآخرة.

والنصوص الإسلامية تشير إلى هذا المعنى الدقيق في انقلاب الدعاء إلى العمل.

(١) التوبة : ١٠٥.

(٢) الزلزلة : ٧.

روى حماد بن عيسى عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «سمعته يقول: ادع، ولا تقل قد فرغ من الأمر[١]، فإنّ الدعاء هو العبادة»[٢].

وفي حديث آخر عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «ادعه، ولا تقل قد فرغ من الأمر، فإنّ الدعاء هو العبادة؛ إنّ الله عزّوجلّ يقول: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**[٣].

العلاقة بين الدعاء والإجابة:

عرفنا أنّ العوائق من النوع الأول منتفية من ساحة الله تعالى بشكل مطلق.

ولكن العوائق من النوع الثاني حقيقة قائمة وموجودة في حياة العباد وأدعيتهم، ولذلك فانّ الله تعالى قد يؤجل الاستجابة، وقد

(١) يعني هذا الأمر من قضاء الله و قدره الذي لا يمكن تجاوزه و اختراقه بالدعاء.

(٢) وسائل الشيعة ٤: ١٠٩٢، ح ٨٦٤٣؛ أُصول الكافي: ٥١٦.

(٣) وسائل الشيعة ٤: ١٠٩٢، ح ٨٦٤٥؛ أُصول الكافي: الفروع ١: ٩٤.

يبدل الإجابة. وفي غير هاتين الحالتين (حالة التأجيل وحالة التبديل) لابدّ من الإجابة، وهذه الحتمية نابعة من حكم الفطرة القطعي، إذا كان السائل محتاجاً وفقيراً ومضطراً إلى المسؤول والمسؤول قادر على إجابة طلبه، ولا بخل ولا شحّ مع خلقه. والقرآن الكريم يؤكد هذه العلاقة الحتمية[١]؛ يقول تعالى:

١ ـ ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[٢]. فلا يحتاج المضطر في الإجابة لاضطراره، وكشف السوء عنه إلاّ إلى الدعاء (إذا دعاه)، فإذا دعاه سبحانه استجاب لدعائه، وكشف عنه السوء.

٢ ـ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. والآية الكريمة واضحة وصريحة في الربط بين الدعاء والاستجابة ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

(١) ليس معنى القول بحتمية هذه العلاقة فرض أمر على الله تعالى، فهو سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة : ﴿فقُلْ سَلامٌ عَلَيكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نفسه الرَّحمةَ﴾ الأنعام : ٥٤.

(٢) النمل : ٦٢.

٣ ـ ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١]. والعلاقة القطعية بين الدعاء والإجابة واضحة وصريحة في هذه الطائفة من آيات كتاب الله، وهي تدفع كل شك وريب من النفس في قطعية الإجابة من الله لكل دعاء، ما لم تكن الإجابة مضرّة بالداعي، أو بالنظام العام الذي يعتبر الداعي جزءاً منه، والاستجابة في هذه الآيات غير مشروطة ولا معلّقة بشيء.

وأمّا الشروط التي سوف نتحدث عنها فهي في الحقيقة ترجع إلى تحقيق الدعاء وتثبيته، أو مصلحة الداعي نفسه، ومن دونها يضعف الدعاء أو ينتفي.

إذن فإنّ العلاقة بين الدعاء والاستجابة علاقة حتميّة لا يمكن أن تتخلف، وعلاقة مطلقة لا يمكن أن تتعلق، إلاّ أن يكون الشرط مما يؤكد ويثبت حالة الدعاء، نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.[٢] وفي النصوص الإسلامية في أحاديث رسول

(١) البقرة : ١٨٦.

(٢) النمل : ٦٢ .

الله ﷺ وأهل بيته (عليهم السلام) ما يؤكد ويعمّق هذه العلاقة بين الدعاء والإجابة.

ففي الحديث القدسي: «يا عيسى! إني أسمع السامعين، أستجيب للداعين إذا دعوني»[1].

وعن رسول الله ﷺ: «ما من عبد يسلك وادياً فيبسط كفيه، فيذكر الله ويدعو إلاّ ملأ الله ذلك الوادي حسنات، فليعظم ذلك الوادي أو ليصغر»[2].

وعن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) في حديث: «لو أنّ عبداً سدّ فاه، ولم يسأل لم يعط شيئاً، فسل تعط»[3].

وعن ميسر بن عبدالعزيز عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام): «يا ميسر، إنه ليس من باب يقرع إلاّ يوشك أن يفتح لصاحبه»[4].

---

(١) اصول الكافي.

(٢) ثواب الأعمال: ١٣٧.

(٣) وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٤، ح ٨٦٠٦.

(٤) وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٥، ح ٨٦١١.

وعن أميرالمؤمنين (عليه السلام): «متى تكثر قرع الباب يفتح لك»[1].

وفي وصايا رسول الله ﷺ لعلي (عليه السلام): «يا علي! أُوصيك بالدعاء فإنّ معه الإجابة»[2].

وعن الصادق (عليه السلام): «إذا أُلهِم أحدكم الدعاء عند البلاء فاعلموا أنّ البلاء قصير»[3].

وعن الصادق (عليه السلام): «لا والله لا يلح عبد على الله عزّوجلّ إلاّ استجاب الله له»[4].

والنصوص الإسلامية تؤكد هذه الحتمية والإطلاق في العلاقة بين الدعاء والإجابة، وتبيّن بشكل واضح وصريح أنّ الله تعالى يستحيي أن يرد دعاء عبده إذا دعاه.

وفي الحديث القدسي: «ما أنصفني عبدي، يدعوني فأستحيي

---

(١) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٥، ح ٨٦١٣.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٢، ح ١٨.

(٣) وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٧، ح ٨٦٢٤.

(٤) اصول الكافي، كتاب الدعاء، باب الإلحاح في الدعاء، ح ٥.

أن أردّه، ويعصيني ولا يستحيي مني»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «ما أبرز عبد يده إلى الله العزيز الجبار إلاّ استحيى الله عزّوجلّ أن يردّها»[2].

وفي الحديث القدسي: «من أحدث وتوضأ وصلّى ودعاني فلم اُجبه فيما يسأل عن أمر دينه ودنياه فقد جفوته، ولست بربٍّ جاف»[3].

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام: «ما كان الله ليفتح باب الدعاء، ويغلق عليه باب الإجابة»[4].

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً: «من اُعطي الدعاء لم يحرم الإجابة»[5].

وفي النصَّين الأخيرين التفاتة ذات مغزىً ونكهة علوية؛ فإنّ

(١) إرشاد القلوب للديلمي.

(٢) عدة الداعي ؛ وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٤، ح ١.

(٣) إرشاد القلوب للديلمي.

(٤) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٢، ح ١٢ ؛ و: ٤ / ١٠٨٧، ح ٨٦٢٤.

(٥) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٢ ؛ و: ٤ / ١٠٨٦، ح ٨٦٢٢.

الله تعالى كريم ووفيّ، فإذا فتح باب الدعاء فلا يمكن أن يغلق على العبد باب الإجابة، وإذا رزق العبد توفيق الدعاء فلا يمكن أن يحرمه الإجابة.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما فتح لأحد باب دعاء إلاّ فتح الله له فيه باب إجابة، فإذا فتح لأحدكم باب دعاء فليجهد فإنّ الله لا يمل»[1].

وهذا هو المنزل الثالث من منازل رحمة الله. اللّهمّ سمعنا وشهدنا وآمنّا.

المنازل الثلاثة للرحمة:

في قصة هاجر وإسماعيل عليهما السلام، و في قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام نلتقي مشهداً فريداً أو نادراً من نوعه، في اجتماع منازل ثلاثة للرحمة في موضع واحد، و في قصة واحدة، وهي الفقر والحاجة (أولاً) والدعاء والسؤال (ثانياً)، والسعي والحركة

(١) وسائل الشيعة ٤: ١٠٨٧، ح ٨٦٢٤.

(ثالثاً) وذلك عندما أودع أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر في واد غير ذي زرع وترك معها ابنهما إسماعيل عليه السلام وهو يومئذ طفل رضيع، وقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1].

وذهب إبراهيم خليل الله بعد ذلك إلى شأنه كما أمره الله تعالى، وترك هذه المرأة والطفل الرضيع وحدهما في هذا الوادي القفر بأمر الله تعالى، فنفد ما كان لديهما من الماء، وعطش الطفل وغلب عليه الظمأ وبحثت المرأة عن الماء فلم تجد له أثراً، وأخذ الطفل يصرخ ويضرب بيديه ورجليه، والأُم تهرول هنا وهناك، فتصعد على الصفا تارة، تنظر إلى الأُفق البعيد بحثاً عن الماء، ثم تهبط وتهرول باحثة عن الماء إلى جانب جبل المروة، وتدعو الله تعالى أن يرزقهما الماء في هذا الوادي القفر، والطفل يصرخ ويبكي ويضرب بيديه ورجليه عند البيت الحرام.

(١) إبراهيم: ٣٧.

ففجَّر الله تعالى الأرض بالماء تحت قدمي الطفل، فأسرعت الأُم إلى الماء، لتروي طفلها الرضيع، ولتلملم الماء لئلاّ يذهب هدراً، فتقول للماء وهي تصنع له حوضاً يجمعه: «زم... زم...».

إنّ هذا المشهد العجيب استنزل يوم ذاك رحمة الله تعالى، ففجَّر الله تعالى زمزم في واد غير ذي زرع، وجعلها مصدراً ومبدأً لكثير من البركات على هذه الأرض المباركة.

وجعل الله تعالى هذا المشهد جزءاً من أعمال الحج، و ثبّته الله تعالى في واحد من أشرف فرائضه.

فما هو السر الكامن في هذا المشهد؟ ولماذا هذا الاهتمام به في أصل الدين، وتثبيته في الحج؟ وما هو السبب المؤثر والقوي الذي استنزل رحمة الله تعالى بقوة في هذا المشهد، وجعلها مبدأً لبركات كثيرة في تاريخ أجيال الموحّدين؟ فلابد أن يكون هذا المشهد منطوياً على سرٍّ خاص استدعى نزول رحمة الله تعالى في ذاك الوادي القفر، واستدعى دوام هذه الرحمة وثباتها، وجعل منها مصدراً ومبدأً لكثير من البركات، واستدعى أن يثبتها الله

تعالى في حج أجيال الموحدين عند بيته الحرام.

إنني أعتقد ـ والله تعالى أعلم بأسرار هذا المشهد ـ أنّ هذا المشهد النادر كان يجمع يومئذ بين ثلاثة منازل من منازل رحمة الله تعالى، كل منها يستنزل رحمة الله.

وأول هذه المنازل: الحاجة التي كان يمثلها الظمأ الذي أضر بالطفل الرضيع، والحاجة والفقر إلى الله من منازل رحمة الله. وكلّما أضر الفقر بصاحبه أكثر كان أقرب إلى رحمة الله، ولذلك نرى أنّ الأطفال الرضّع إذا أضرّ بهم ألم أو جوع أو ظمأ أو برد أو حرّ، كانوا أقرب إلى رحمة الله من الكبار الّذين يطيقون ذلك. وذلك لأنّ الحاجة تضرّ بهم أكثر من غيرهم.

وقد ورد في الدعاء: «اللّهمّ أعطني لفقري» والفقر إلى الله وحده يستنزل رحمة الله تعالى، وكلما كان الفقر إلى الله أعظم كان أدعى لنزول رحمة الله. فإنّ الفقر إلى الله يجعل الإنسان عند رحمة الله، ويقرب الإنسان منه، سواء كان الإنسان يعي فقره إلى الله أم لا يعي، وإن كان وعي الفقر إلى الله يضاعف من قيمته

وقدرته في استنزال رحمة الله تعالى، كما ذكرنا. ولكن بشرط ألاّ يحرّف الإنسان الفقر عن موضعه، فيتصوّر أنّه من الفقر إلى المال أو إلى حطام الدنيا، أو إلى بعض عباد الله بدل أن يعيه على واقعه من الفقر إلى الله. وشتّان بين هذا الفقر وذاك الفقر.

والّذي يستنزل رحمة الله تعالى هو الفقر إلى الله، فإذا حرّف الإنسان هذا الفقر من الفقر إلى الله إلى الفقر إلى عباد الله، فقد الفقر قيمته في استنزال رحمة الله تعالى، وأكثر فقر الناس من هذا النوع.

وفي هذا المشهد كان صراخ الطفل وضجيجه وبكاؤه من شدة العطش مشهداً نافذاً مؤثراً في استنزال رحمة الله تعالى. وليس في مشاهد الحاجة والفاقة إلى الله مشهد مؤثر ورقيق يستنزل رحمة الله تعالى، أكثر من مشهد طفل يتلظّى من العطش، ولا تجد له أُمّه إلى الماء سبيلاً.

والمنزل الثاني لرحمة الله في هذا المشهد هو «السعي»، وهو شرط للرزق، ولا رزق من دون سعي، وقد جعل الله تعالى السعي

والحركة في حياة الإنسان مفتاحاً للرزق.

وإذا كان عامل الفقر يتطلّب من الإنسان حالة الاضطرار والفاقة والحاجة، فإنّ عامل السعي يتطلب من الإنسان العزم والقوّة والإرادة، والحركة والنشاط، وعلى قدر حركة الإنسان وسعيه وعزمه يرزقه الله تعالى من رحمته.

وقد تحركت أُم إسماعيل عند ما نفد عندهما الماء، وغلب الظمأ على إسماعيل تحركت للبحث عن الماء و سعت في طلبه، تصعد إلى الصفا مرة، تنظر في الأُفق البعيد باحثة عن الماء، وتنزل من الصفا وتتّجه إلى المروة تارة أُخرى لتصعد عليه وتنظر إلى الأُفق البعيد تبحث عن الماء، ورغم أنها استعرضت في هذه الحركة كل الأُفق من على الصفا والمروة فلم تجد ماءً، لم تيأس وكررت هذه الحركة والصعود والنزول والهرولة من الصفا إلى المروة وبالعكس سبع مرات.

ولولا هذا الأمل والرجاء لا نقطع سعيها في الشوط الأول، ولكن الأمل والرجاء اللذين كانا يعمران قلبها العامر كانا

يدعوانها كل مرة إلى إعادة السعي مرة أُخرى، حتى فرَّج الله عنهما و فجّر زمزم تحت قدمي إسماعيل، ولكن الأمل هنا في الله وليس في سعيها، ولو كان أملها في سعيها لا نقطع أملها في المرة الأُولى أو الثانية.

وقد جعل الله تعالى هذا السعي وهذه الحركة شرطاً للرزق، ولنزول رحمته على الإنسان، والله تعالى يرزق عباده، وينزل عليهم رحمته، ولكن الله تعالى شاء أن يكون السعي و الحركة مفتاحاً لرزقه ورحمته.

والمنزل الثالث لرحمة الله تعالى في هذا المشهد هو دعاء أُم إسماعيل، و انقطاعها إلى الله واضطرارها إليه عزّ شأنه في طلب الماء في هذا الوادي القفر غير ذي الزرع.وكلّما انقطع الإنسان في دعائه إلى الله أكثر كان أقرب إلى رحمة الله.

ولست أدري في أية حالة من حالات الانقطاع إلى الله كانت هذه المرأة الصالحة، في تلك اللحظات في ذلك الوادي، وليس من إنسان أو حيوان حولها، ووحيدها الرضيع يتلظى عطشاً،

ويكاد أن يلفظ آخر أنفاسه.

لقد انقطعت هذه المرأة إلى الله في تلك اللحظة انقطاعاً ضجّت له ملائكة الله بالدعاء، و ضموا أصواتهم إلى صوتها، ودعاءهم إلى دعائها. ولو أنّ الناس كلهم انقطعوا إلى الله بمثل هذا الانقطاع ﴿لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[1] وعمّتهم رحمة الله تعالى.

عليكِ سلام الله يا أُمّنا! أُم إسماعيل من أبنائك الّذين آتاهم الله النور والهدى، والإيمان والنبوة ومن المهتدين بهداهم ونورهم، فلولا انفرادك في ذلك الوادي القفر غير ذي الزرع في هجير الحجاز، ولولا تلك المعاناة والمحنة لم تنقطعي إلى الله عزّوجلّ بمثل هذا الانقطاع في ذلك الموقف العسير على جبلي الصفا والمروة، ولولا ذلك الانقطاع إلى الله، لم تنزل رحمة الله تعالى عليكما، ولولا تلك الرحمة لم يكن انقطاعك إلى الله وسعيك بين الصفا والمروة من شعائر الله في الحج. ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن

(١) المائدة : ٦٦.

شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[1].

لقد ثبّت الله تعالى يا أُمّنا انقطاعك إليه في ذلك الهجير، وسعيك إلى الماء وصراخ صغيرك إسماعيل في ذاكرة التاريخ، ليعرف الأجيال من بعدك كيف يستنزلون رحمة الله، وكيف يتعرضون لرحمة الله.إنّ رحمة الله تعالى واسعة لا شحّ فيها ولا نقص، ولا عجز، ولكن الناس لا يعرفون مواضع هذه الرحمة ومنازلها، ولا يحسنون التعرّض لها والاستفادة منها. ومنك تعلمنا يا أُمّنا كيف نطلب منازل رحمة الله وكيف نتعرض لرحمة الله، ومنك يا أُمّنا أخذنا مفاتيح الرحمة.

وعذراً يا أُمّنا إذا كنّا نحن أبنائك لم نحفظ هذه المفاتيح التي سلّمتيها إلى إسماعيل من بعدك، وتوارثها أبناء إسماعيل من إسماعيل وتوارثناها نحن من ابنك محمد المصطفى رسول الله ﷺ، فضيعناها فيما ضيعنا من تراث الأنبياء ومواريثهم.

(١) البقرة : ١٥٨.

لقد تعلمنا من أبينا إبراهيم كيف نوحّد الله، وتعلمنا من أُمّنا هاجر كيف نسأل الله. وفي متاهات الهوى والطاغوت ضيعنا هذا وذاك.

فأعنّا اللّهمّ على تحصيل ما ضيعناه من تراث أبينا وأُمّنا إبراهيم وهاجر عليهما السلام، واجعلنا من أُسرتهم، ولا تطردنا ربنا من هذا البيت من آل إبراهيم وآل عمران. ﴿**إنّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحَاً وَآلَ إبْراهيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلى الْعالَمينَ * ذُرّيّةً بَعْضُها مِنْ بَعْض وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ**﴾[1]. ﴿**رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرّيَّتنا اُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إنَّكَ أَنْتَ التَوّابُ الرَّحيمُ**﴾[2]. لقد أخذت أُمنا (أُم إسماعيل) يوم ذاك في ذلك الوادي القفر، وفي رمضاء ذلك الهجير بأسباب الخير كلّها، وذلك هو السعي والدعاء والفقر.

لقد كانت أمّنا تسعى إلى الماء وتشرف على الوادي تارة من

---

(١) آل عمران : ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) البقرة : ١٢٨.

على الصفا، وأُخرى من على المروة باحثة عن الماء، والله تعالى يحب من عباده الحركة والسعي والعمل، وجعل ذلك من أهم شروط الرزق. ولكنها في سعيها كانت منقطعة إلى الله، وتدعوه تعالى وتسأله في حالة من الانقطاع، يقلّ نظيرها في تاريخ الإنسان.

فلا السعي والتحرك، كان يحجبها عن الله، ويقطعها عنه تعالى، ولا الانقطاع إلى الله كان يعطل فيها حالة الحركة والسعي، السعي إلى الماء بأقصى ما تستطيعه إمرأة في ذلك الوادي، وفي ذلك الهجير، في أشواط سبعة من الصفا إلى المروة ومن المروة إلى الصفا.

وإنّنا اليوم في شعائر حجّنا، نسعى هذه الأشواط بين هذين الجبلين، من غير معاناة ولا عذاب، ولا همّ، ولا قلق فنكدح ونتعب ويرهقنا هذا السعي.

وقد قامت أُمنا هاجر بهذا السعي كله في ذلك الوادي القفر وفي رمضاء ذلك الهجير، وهي ظمأى قد استنفد العطش كل

حولها وقوتها، ورضيعها الصغير يكاد يلفظ آخر أنفاسه، ولكنها مع ذلك قامت بهذا السعي إلى الماء بقوة وهمّة وعزم وإرادة. ومع ذلك لم يقطعها هذا السعي ولو لحظةً واحدة عن الانقطاع إلى الله، ولم يحجبها و لو لحظةً واحدة عن الله.

لقد كانت في هذا السعي المرير كلّه على اتصال بالله وانقطاع إلى الله، لا يشغلها هذا عن ذاك ولا يحجبها ذاك عن هذا، فقرنت السعي إلى الدنيا بالانقطاع إلى الله، وقرنت الانقطاع إلى الله بالسعي إلى الدنيا، ومَن منّا يقدر على ذلك؟ والملائكة يومئذ ينظرون إليها ويعجبون منها، كيف استطاعت أن تنقطع إلى الله هذا الانقطاع؟ وكيف تمكنت أن تسعى إلى الماء وهي مثقلة بالمتاعب والمحن هذا السعي؟ وكيف استطاعت أن تجمع بين السعي والانقطاع إلى الله بمثل هذا الجمع؟ فيضجّون إلى الله تعالى أن يستجيب لدعائها وسعيها، وأن يستنزل سعيها ودعاؤها رحمة الله تعالى، وتستقرب رحمة الله حتى تكاد أن تنطبق السماء على الأرض. لقد صعد يومئذ عمود من الدعاء والعمل الصالح

من الأرض إلى السماء، ونزل عمود من الرحمة من السماء إلى الأرض، واتصلت الأرض بالسماء والسماء بالأرض، وحشود الملائكة يشهدون هذا المشهد الفريد، ويضجّون إلى الله تعالى ويتضرعون، فيحدث ما ليس بالبال ولا بالخيال، وتتفجَّر الأرض تحت أقدام الرضيع ماءً بارداً زلالاً شفّافاً هنيئاً.

وسبحان الله والحمد لله، لقد استجاب الله لسعيها ودعائها، ولكن لا حيث سعت وإنّما تحت أقدام الرضيع الذي كان يضرب بيديه ورجليه ظمأً يوم ذاك، ليعلمها الله أنه تعالى هو وحده الذي رزقها هذا البارد العذب في هذه الرمضاء وذلك الهجير، وليست هي التي حققت ذلك بسعيها وحركتها، وإن كان لابدَّ لها أن تسعى وتتحرك ليرزقها الله تعالى «زمزم».

ففجَّر الله «زمزم» تحت أقدام الرضيع، وأقام الله تعالى في ذلك الوادي بيته المحرَّم، وبارك في زمزم وجعل منها سقاية الحاج مدى الأجيال، وثبّت الله هذا السعي والدعاء في ذاكرة التاريخ، وجعل منه شعيرة من شعائر الحج، يحذو فيها حشود

الحجاج كل عام حذوها، ويحيّون فيها من بُعد، أُمهم هاجر وأبويهم إبراهيم وإسماعيل.

لقد اجتمع في هذا الوادي يوم ذاك ثلاثة أسباب من أسباب نزول رحمة الله تعالى: الفقر، والسعي، والدعاء؛ فقر في أقصى درجات الضعف والفاقة، وسعي في قوة وحزم وعزم، ودعاء في تضرُّع وانقطاع واضطرار.

وفي الحج نحيي نحن كل عام هذا المشهد لنتعلم من أُمّنا أُم إسماعيل عليه السلام كيف نطلب رحمة الله تعالى، وكيف نستنزل فضله ورحمته، وكيف نغرف من رحمته ونتعرض لها.

الفهرس